من نجوم الإسلام

(١٢)



تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدار الشامية
بيروت

الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣


عمرو بن العاص



بسم الله الرحمن الرحيم

حَدَّثنا الفتى صادق أمين قال:

كان مدرّس التربية الإسلامية يشرح لنا الحديث الشريف:

«خيارُكم في الجاهلية خيارُكم في الإسلام إذا فقهوا» وقسّم الناس إلى معادن، فمنهم من كان معدنه ثميناً نفيساً، ومنهم من ينحدر من معدن خسيس، ومنهم بين بين، لا هو إلى النفيس ولا هو إلى الخسيس، بل هم بين هذا وذاك. وضرب لنا مثلاً على الخيار الذين ينتمون إلى المعدن النفيس في الجاهلية والإسلام، جيل الصحابة الكرام، رضي الله عنهم جميعاً، وتوقّف لحظات عند القائد الداهية عمرو بن العاص رضي الله عنه، وقال:

ـ عمرو بن العاص كان فارساً من الفرسان المعدودين في الجاهلية، وكذلك كان في الإسلام، وهو ينتسب إلى بني سَهْم، وبنو سهم هم بطن من عشرة أبطن من قريش، انتهى إليها الشرف قبيل مجيء الإسلام.

فسألتُ الأستاذ عن تلك الأبطن، فأجاب:

ـ إنهم بنو هاشم، وبنو أمية، وبنو نوفل، وبنو عبد الدار،

وبنو تيم، وبنو أسد، وبنو مخزوم، وبنو عدي، وبنو جُمَح، وبنو سهم الذين ينتمي إليهم صاحبنا البطل العظيم عمرو بن العاص رضي الله عنه.

وسأل أحد الطلاب:

ـ هل كان بنو سهم يتميزون بميزة معينة عن غيرهم من القبائل العربية؟

فأجاب الأستاذ:

ـ نعم يا بني.. إنهم يمتازون بميزات كثيرة، فهم أصحاب الحكومة في قريش، ويعنون بالحكومة، أنهم يحكمون بين الناس الذين يحتكمون إليهم في سائر شؤونهم، فالقضاة من بني سهم، يقضون بين الناس فيما يختلفون فيه، سواءٌ أكانوا من قريش أم من الوافدين إلى مكة، من القبائل الأخرى، لأنّ بني سهم كانوا أصحاب رأي وحلم ودهاء، وكذلك كان القائد البطل عمرو بن العاص، ذا رأي حصيف، وصاحب حلم ودهاء وحيلة.. ثم إن رئاسة الأموال الخاصة بآلهتهم وأوثانهم كانت لبني سهم، الذين اشتهروا بالعزّ والشرف والكرم والغنى، وبالأدب، والشعر والعقل وغيرها من الصفات التي يعشقها العرب، ويقدرون أصحابها، وكذلك كان عمرو بن العاص السهمي.

وقال الأستاذ:

ـ وكان عمرو بن العاص يعتزّ بنسبه وحسبه، ويفاخر الناس

بهما، فمثلاً عندما كان عمرو أميراً على مصر، وكثر ماله، أرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يسأله عن أصل ماله، ومن أين اكتسبه وجمعه، فغضب عمرو بن العاص، وأجاب أمير المؤمنين برسالة قال له فيها: «... ووالله لو كانت خيانتك حلالاً ما خنتُك وقد ائتمنتني، فإنّ لنا أحساباً إذا رجعنا إليها، أغنتنا عن خيانتك».

وعلّق الأستاذ على رسالة عمرو بقوله:

ـ ذلك أن أصحاب الأحساب والأنساب، يخافون على سمعة أهليهم، فلا يفعلون ما يجلب العار لأسرهم وقبائلهم وأنفسهم، أمّا السِّفْلة، فإنهم لا يأبهون بسمعة ولا يخشون عاراً، لأنهم من أصول وضيعة، والعار يحوطهم من كل جانب، فإذا سنحت لهم فرصة، بادروا إلى نهب أموال الناس، والعدوان على أعراضهم وكراماتهم.

وصعّد الأستاذ بعض الحسرات ثم قال:

وعندما عزل أمير المؤمنين عثمانُ بن عفان ـ رضي الله عنه ـ عمرو بن العاص عن ولاية مصر، دعاه إليه، فوبّخه وأنّبه، وأراد أن يفاخره بما كان من أمرهما في الجاهلية، وقال لعمرو:

ـ أمَا والله لأنا أعزُّ منك نفراً في الجاهلية، وقبل أن ألي هذا السلطان.

فلم يسكت له عمرو، بل أجابه بقوله مفاخراً:

ـ دع عنك هذا، فالحمد لله الذي أكرمنا بمحمد ﷺ، وهدانا به، فقد رأيت العاص بن وائل ـ يعني أبا عمرو ـ ورأيت أباك عفّان، فوالله للعاصُ كان أشرف من أبيك.

فما كان من أمير المؤمنين عثمان إلاَّ أن يقول له:

ـ ما لنا ولذكر الجاهلية؟!.

هذا لأن العاص بن وائل ـ أبا عمرو ـ كان غنياً، وكان يتاجر بين الشام واليمن، في رحلتي الشتاء والصيف اللتين كانتا لقريش.

وقال الأستاذ:

ـ وكان عمرو بن العاص من أدهى الناس، له عقل كبير، وقلب ذكي، واسمعوا ما يقول الإمام الشعبي عن دهاة العرب. قال الشعبي رحمه الله:

«دهاة العرب أربعة: معاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، فأمّا معاوية فللحلم والأناة، وأمّا عمرو، فللمعضلات، وأمّا المغيرة فللمبادهة، وأمّا زياد فللكبير والصغير».

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إذا نظر إلى عمرو يمشي، يقول:

«ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي إلاَّ أميراً».

وكان عمر ــ رضي الله عنه ــ إذا رأى الرجل يتلجلج في كلامه ولا يكاد يبين، كان يقول:

«أشهد أنّ خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد».

أي أنّ الله الذي خلق عمراً صاحب المنطق والفصاحة، خلق أيضاً ذلك الرجل الذي يتأتِيء ويفأفِيء ولا يستطيع الإفصاح عما في نفسه.

وكذلك كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه إذا شاهد رجلاً ضعيف الرأي، قليل العقل، يقول له:

«أشهد أنّ خالقك وخالق عمرو بن العاص واحد».

وهكذا استمرّ الأستاذ في حديثه عن عمرو العاقل الداهية، وعن عمرو الشجاع المقدام، وعن عمرو القائد المحنك الذي كان يقاتل بعقله قبل أن يقاتل بسيفه، حتى أحببناه، وتعلّقنا به، ووددت لو أني ألقاه في حلم من أحلامي العصرية.

وعندما عدت إلى البيت، حدّثتُ أبي وأمّي وأختي صادقة عن البطل الداهية عمرو بن العاص حديثاً جعلهم يقفون عن تناول الغداء، وهم مصغون لما أقول.

وبعد صلاة العصر، تمددت في سريري، وأخبار عمرو رضي الله عنه تسيطر على جوانب نفسي، وعلى أقطار عقلي المتواضع، وفيما أنا كذلك، أستعيد بعض الأخبار، وأتصور صورة الرجل الداهية، إذا أنا برجل قصير يختال في مشيته، قسمات وجهه

تنبىء بالجدّ والأهمية، والتماع عينيه يشي بتوقّد ذهنه، وتذكرت كلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ما ينبغي لأبي عبد الله أن يمشي إلَّا أميراً» فهتفت:

ـ من؟ داهية العرب الذي قال عنه الرسول القائد ﷺ:

«أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص؟».

وإذا أختي صادقة تظهر في الباب وهي تقول:

ـ أجل.. إنه القائد الداهية المظفّر: عمرو بن العاص يا صادق.

فتقدم عمرو بضع خطوات وهو يقول:

ـ بل أنا، كما أجبت الخليفة أبا بكر الصديق عندما أراد أن يوجهني مع الجيوش التي جيَّشها لفتوح الشام، قلت له:

«إني سهم من سهام الإسلام، وأنت، بعد الله، الرامي بها، والجامع لها، فانظر أشدَّها وأخشاها وأفضلها، فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي».

فقالت صادقة، كأنها تحدّث نفسها في إعجاب:

ـ سهمٌ من سهام الإسلام، وأنت بعد الله الرامي بها؟ الجامع لها؟ ما هذا الكلام العجيب؟!.

صادق: بل قولي: ما هذا الرجل العجيب؟!.

صادقة: مثل هذا الرجل يخرج منه مثل هذا الكلام الرائع، لا بدّ أن يكون عظيماً.

صادق: ألم أحدثكم عنه؟ لقد كان رجلاً عظيماً قبل هذا الكلام وبعده، وكان ذا شأن في الجاهلية، ثم علا نجمه وتألق بعدما أسلم.

عمرو: على رسلكم، يا حفدتي، لا تقطعوا عنقي بهذا المديح في حضرتي ووجودي، فأنا منذ أسلمت عن اقتناع ويقين، كنت سهماً من سهام الإسلام، رماني في نحور أعداء الله والرسول والإسلام، رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عمرو: ثم خليفتاه من بعده: أبو بكر وعمر.. كانوا يرمونني حيث شاؤوا وشاءت مصلحة الإسلام والمسلمين، فأنطلق إلى هدفي، أحققه وأعالجه بالأسلوب الأمثل الذي يهديني إليه عقلي وتفكيري.

صادقة: هل تقدّم لحفدتك المحبّين لك، المعجبين بك، نفسك يا جدّنا العظيم؟

عمرو: اسمي عمرو بن العاص بن وائل السَّهْمي القرشي، وُلدتُ في مكة المكرمة قبل سبعة وأربعين عاماً من هجرة رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عمرو: إلى المدينة المنورة بصاحبها عليه الصلاة والسلام، ونشأت وترعرعت فيها، أتقلب على سرر النعيم الذي هيّأه لنا ثراء أبـي الذي كان يتاجر بين الشام واليمن، وفي أحضان أمي التي كانوا يسمّونها النابغة، لحّدة ذكائها، وصلابتها، وقوة شكيمتها، أمّا اسمها فسلمى بنت حرملة من بني عنزة، أصابتها رماح العرب، فأخذوها سبيّة وباعوها في سوق عكاظ، فاشتراها الفاكهة بن المغيـرة، ثـم اشتـراهـا منـه عبـد الله بـن جـدعـان، ثـم صـارت إلـى العاص بن وائل ــ أبـي ــ فولدتني له.

صادقة: متى أسلمت يا جدّي؟

عمرو: إني أستغفر الله كثيراً لتأخري في الاستجابة للنبـيّ الكريم ﷺ، ومعاداتي له ولهذا الدين الحنيف.

صادق: الإسلام يجبُّ ما قبله يا سيّدي، وبلاؤك، بعد أن أسلمـت، كـان عظيمـاً ولله الحمـد، لـذا، نـرجـو أن تحـدّثنـا عـن إسلامك.. متى أسلمت؟ وكيف؟

عمرو: قبل أن أجيب يا بني يا..

صـادق: أنــا صــادق.. اسمــي صــادق، واســم أختــي هــذه صادقة..

عمرو: قبل أن أجيبكما يا صادق ويا صادقة، أحبّ أن أذكر لكما السبب في إبطائي عن الإسلام، فقد سألني رجلٌ من المسلمين عن هذا فقال:

ـ ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت في عقلك يا عمرو؟

فأجبته، وجوابي له هو جوابي لكما عما يدور في نفوسكما.. قلت له:

ـ إنّا كنّا مع قوم لهم علينا تقدُّم، وكانوا ممن توازي حلومهم الجبال، فلما بُعث النبيُّ ﷺ، فأنكروا عليه، لُذْنا بهم، فلمّا ذهبوا، وصار الأمر إلينا، نظرنا وتدبّرنا، فإذا حقٌّ بيّنٌ، فوقع في قلبي الإسلام، فعرفت قريش ذلك مني، من إبطائي عما كنت أسرع فيه من عونهم عليه، فبعثوا إليّ فتىً منهم، فناظرني في ذلك، فقلت له:

ـ أنشدك الله ربّك وربَّ مَنْ قَبْلَك ومَنْ بعدَك، أنحن أهدى أم فارس والروم؟

قال: نحن أهدى.

قلت: فنحن أوسع عيشاً أم هم؟

قال: هم.

قلت: فما ينفعنا فضلُنا عليهم، إن لم يكن لنا فضل إلاَّ في الدنيا، وهم أعظم منا فيْها أمراً في كل شيء؟. وقد وقع في نفسي أنّ الذي يقوله محمد عن أنّ البعث بعد الموت ليجزىٰ المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته حقّ، ولا خير في التمادي في الباطل.

صادقة: يا سلام!.. ما أروع ما أسمع!.

صادق: متى كان إسلامك يا سيّدي؟

عمرو: أسلمتُ في هدنة الحديبية التي استمرت اثنين وعشرين شهراً بين المسلمين وبين مشركي قريش، أَمِنَ الناس خلالها على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، فخرجت من مكة عامداً إلى رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عمرو: وكان ذلك قبيل فتح مكة، أي في السنة الهجرية الثامنة، فلقيتُ في الطريق، خالد بن الوليد، وعثمان بن طلحة، فقلت لخالد:

ـ إلى أين يا أبا سليمان؟

قال خالد: والله لقد استقام المَنْسِم (أي تبيّن الطريق ووضح) وإنّ الرجل لنبيٌّ.. أذهبُ والله فأُسلم، فحتى متى؟

قلت: والله ما جئت إلاّ لأسلم.

فقدمْنا المدينة على رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عمرو: فتقدّم خالد فأسلم وبايع، ثم تقدّم عثمان بن طلحة فأسلم وبايع، ثم دنوتُ من رسول الله وقلت:

ـ ابسط يمينك أبايعك يا رسول الله.

فبسط يده.. ثم إني قبضت يدي، فقال:

«ما لك يا عمرو؟».

فقلت: أردت أن أشترط.

فقال: تشترط ماذا؟

فقلت: أشترط أن يُغفر لي ما تقدّم من ذنبي، ولا أذكر ما تأخّر.

فقال رسول الله ﷺ:

«أما علمتَ يا عمرو، أنّ الإسلام يهدم ما كان قبله، وأنّ الهجرة تهدم ما كان قبلها، وأنّ الحجّ يهدم ما كان قبله؟».

قال عمرو متابعاً:

ــ فقد رأيتُني ما من أحدٍ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عينيّ منه، ولو سُئلتُ أنْ أنعته ما أطقت، لأني لم أكن أطيق أن أملأ عينيّ منه، إجلالاً له.

وكأنّ رسول الله ﷺ عرف حقيقة موقفي فقال قولته التي أعتزّ بها إلى يوم الدين:

«أسلم الناس، وآمن عمرو بن العاص».

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي؟

صادقة: ثم صرتَ موثوقاً عند الرسول القائد ﷺ.

عمرو: وأيّ ثقة!... والله ما عدل بي رسول الله ولا بخالد أحداً من أصحابه في الحرب منذ أسلمنا.

صادقة: هنيئاً لكما يا جدّي العزيز، هذه الثقة من الرسول القائد.

عمرو: لقد أسلمت بعد تفكير طويل، وعن اقتناع تام، ولهذا فأنا أعتزّ بإسلامي، وبشهادة رسول الله بإيماني.

صادق: بماذا تكنى يا سيِّدي؟

عمرو: كنيتي: أبو عبد الله، وقد أسلم ابني عبد الله قبلي، ففاز بشرف السبق إلى الإسلام، وشرف صحبة النبيّ عليه السلام.

صادق: في أيّ شهر أسلمت يا سيِّدي؟

عمرو: في صفر عام ثمانية من الهجرة.

صادق: وماذا بعد إسلامك يا سيِّدي؟ ماذا عن جهادك أيها البطل؟

عمرو: عن ماذا تريدونني أن أحدثكم يا أولادي؟ فالحديث عن الجهاد حلوٌ لذيذٌ، وإذا بدأت به، فلن أنتهي منه، إلاَّ إذا استوقفتماني.

صادق: هات يا سيِّدي هات، فكلّنا آذان، ولن نملّ من حديث الجهاد والمجاهدين، فنحن أحوج ما نكون في هذه الأيام لهذه الأحاديث التي ترفع المعنويات، وتبثّ الحميّة في نفوس الناس، بعد حالات الإحباط التي تنتابهم في كلّ يوم.

عمرو: كنا نتحدث عن ثقة رسول الله.

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عمرو: بـي وبخالد قبل قليل.

صادق: نعم يا سيِّدي.

عمرو: من هذه الثقة بـي وبخالد، أنه عليه السلام، عقد لنا لواء الحرب بُعَيْدَ إسلامنا.. ففي جمادى الآخرة، أي بعد أقلّ من ثلاثة أشهر من إسلامي، اختارني رسول الله ﷺ لأكون أميراً على سرية (ذات السلاسل) التي تبعد عن المدينة المنورة عشرة أيام، وكان تحت إمرتي ثلاث مئة مجاهد من خيار المهاجرين والأنصار، وقال لي الرسول الكريم وهو يعقد لواء الحرب لي:

«إني أريد أن أبعثك على جيش، فيغنمك الله ويسلمك».

فقلت: يا رسول الله، إني لم أسلم رغبة في المال.

صادقة: فماذا قال لك الرسول القائد يا جدّي؟

عمرو: فقال لي رسول الله ﷺ:

«يا عمرو، نعم المال الصالح للرجل الصالح».

صادقة: وهذه شهادة ثمينة لك بالصلاح من الرسول القائد يا جدّي.

عمرو: وأنا أعتزّ بهذه الشهادة يا ابنتي يا صادقة.

وسكت الصحابـيُّ الجليل عمرو بن العاص لحظة ثم تابع يقول:

ـ عقد لي رسول الله ﷺ لواء أبيض، وراية سوداء، ومضيت في طريقي مجاهداً في سبيل الله، غير أني علمت أن الذين نغزوهم قد جمعوا لنا ما لا طاقة لنا به، فاستمددت الرسول القائد ـ حسب تعبيركم الجميل ـ فأمدّني بمئتين من المهاجرين والأنصار، كان على رأسهم القائد أبو عبيدة بن الجراح، وفيهم أبو بكر وعمر وسواهما من كرام صحابة رسول الله، رضي الله عنهم وأرضاهم.

فسألت سيِّدي عمراً:

ـ ألم يهاجموك قبل أن يأتيك المدد يا سيِّدي؟

فأجاب القائد المظفّر عمرو:

ـ كنّا نكمن في النهار، ونسير في الليل، حتى نغيب عن أنظارهم، وكان الوقت شتاء، واشتدَّ علينا البرد، فجمع أصحابي حطباً ليشعلوه ويصطلوا به ويدفؤوا، فمنعتهم من إيقاد النار.

صادقة: لماذا منعتهم في الشتاء القارص يا جدّي؟

عمرو: لأني خشيت أن يرى العدوّ قلّة عددنا، فيطمع بنا.. حتى إنّ عمر بن الخطاب قال لأبي بكر:

ـ لم يدع عمرو بن العاص الناس أن يوقدوا ناراً.. ألا ترى إلى ما صنع بالناس؟ إنه يمنعهم منافعهم.

صادق: وهل تدخّل أبو بكر يا سيّدي؟

عمرو: قال له أبو بكر:

ــ دعه يا عمر، فإنّما ولّاه رسول الله علينا لعلمه بالحرب.

صادقة: وسكت عمر يا جدّي؟

عمرو: طبعاً سكت، وقد قلتُ لمن اعترض على أمري هذا: «أُمرتَ أن تسمع وتطيع» فسمعوا جميعاً وأطاعوا، ولمّا هزمْنا أعداءنا، طمع المسلمون بهم، وأرادوا مطاردتهم، فمنعتهم من ذلك.

صادقة: لماذا يا سيّدي؟

عمرو: خفتُ أن يكون لهم مدد، وأن تكون لهم كمائن، فنقع فيها.

صادق: يا لك من قائد مجرّب يا سيِّدي.

عمرو: وعندما هزمنا عدونا، وعُدْنا منصورين إلى المدينة، شكوني إلى رسول الله ﷺ لأني منعتهم من إشعال النار ليتدفؤوا بها، كما منعتهم من مطاردة عدوّهم، وقد شرحتُ للرسول الكريم الموقف، فحمده لي، وامتدح عملي.

صادقة: هنيئاً لك يا جدّي على هذه الشهادة أيضاً من الرسول القائد.

صادق: هل من ذكريات أخر في هذه الغزوة يا سيِّدي؟

عمرو: هناك أكثر من ذكرى، ولكنّ الحديث يطول.

صادقة: إذن حدّثنا عما يبدو لك يا جدّي العزيز.

عمرو: وفي شهر رمضان، أي بعد ثلاثة أشهر من غزوة ذات السلاسل، بعثني رسول الله ﷺ على رأس سرية لهدْم (سُواع) صنم قبيلة هُذَيْل، فسرتُ إليه، وكان عنده السادن (أي الخادم الذي يخدم الصنم) فقال لي:

ـــ ما تريد؟

قلت: أمرني رسول الله ﷺ أن أهدمه.

فقال السادن: لا تقدر على ذلك.

فقلت: لمَ؟

قال: تُمنع.

فقلت له: حتى الآن أنت في الباطل؟ ويحك، هل يسمع أو يبصر؟

فدنوت منه فكسرته، وأمرت أصحابي فهدموا بيت خزانته، فلم يجدوا فيه شيئاً، ثم قلت للسادن: كيف رأيت؟

قال أسلمتُ لله.

صادق: متى كانت هذه السرية يا سيِّدي؟

عمرو: بعد فتح مكّة.

صادقة: هل حضرت فتح مكة يا جدّي العزيز؟

عمرو: طبعاً حضرته يا ابنتي، وبعد فتح مكة، وجّهني رسول الله لهدم الصنم سُواع، كما شهدتُ غزوة حنين تحت قيادة النبيّ الكريم، وقد حدثت هذه الغزوة في شهر شوّال سنة ثمان أيضاً، وبعد أن انهزم المشركون، أمرني بمطاردتهم في وجه من الوجوه، كما أمر خالداً بمطاردتهم في وجه آخر.

ثم حاصرنا الطائف تحت لواء الرسول القائد، في شهر شوال أيضاً، ولكنّ بني ثقيف ثبتوا في وجه حصارنا، فأثنى عُيينة بن حصن على ثباتهم، فقلت له: قاتلك الله، تمدح قوماً مشركين بالامتناع من رسول الله ﷺ، وقد جئتَ تنصره؟

صادقة: هنيئاً لك هذا الشرف الرفيع يا جدّي العظيم.

صادق: ثم ماذا يا سيِّدي عمرو؟ هل كلَّفك الرسول القائد بأمر ذي بال غير ما ذكرت؟

عمرو: أجل.. ففي شهر ذي القعدة من السنة نفسها، بعثني رسول الله..

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عمرو: إلى ملك عُمان، واسمُه جَيْفَر بن الجُلُنْدَىٰ، وإلى أخيه عبد، لأدعوهما إلى الإسلام، وأرسل معي كتاباً إليهما، وختم الكتاب، فلمّا قدمتُ عُمان، عمدتُ إلى عبد، وكان أحلم الرجلين وأسهلهما خلقاً، فقلت له:

ـ إني رسول رسول الله ﷺ إليك وإلى أخيك.

فقال عبد:

ـ أخي جيفر هو الملك المقدَّم عليَّ بالسنّ، وأنا أوصلك إليه، حتى يقرأ كتابك.

فمكثتُ أياماً ببابه، ثم إنه دعاني فدخلت عليه، فدفعتُ الكتاب إليه مختوماً، ففضّ خاتمه وقرأه حتى انتهى إلى آخره، ثم دفعه إلى أخيه فقرأه مثل قراءته، إلاَّ أني رأيت أخاه عبداً أرقَّ منه. فقال:

ـ دعني يومي هذا، وارجع إليّ غداً.

فلما كان الغد رجعتُ إليه، فقال لي:

ـ إني فكّرتُ فيما دعوتني إليه، فإذا أنا أضعف العرب إذا ملّكتُ رجلاً ما في يدي.

قلت له: فإني خارجٌ غداً.

فلمّا أيقن بمخرجي، أرسل إليّ، فدخلتُ عليه، فأجاب إلى الإسلام هو وأخوه عبد، وصدّقا بالنبيّ ﷺ، ودخلا في الإسلام ودخل معهما الناس جميعاً.

صادقة: وعدتَ مسرعاً إلى الرسول القائد في المدينة، أليس كذلك يا جدّي العزيز؟

عمرو: لا.. بل أخبرت الرسول بذلك، ففرح وحمد الله تعالى، وأمرني أن أبقى في عُمان، وكلّفني بجباية الصدقات،

وبالحكم بين الناس، وكان الملك وأخوه خير معينين لي في مهمَّتي هذه.

صادقة: ما هذه الثقة القوية التي أولاك إياها الرسول القائد؟ تسلم اليوم، فيعقد لك لواء الحرب بعد شهرين، ثم لواء آخر، ثم لواء ثالثاً، ثم يرسلك برسالته لتدعو ملكاً من ملوك العرب إلى الإسلام، ثم يكلّفك بجباية الصدقات، ويعيّنك قاضياً تفصل في خصومات الناس، وكلّ هذا خلال بضعة أشهر؟

عمرو: ألم أقل لكما: منذ أسلمت وأسلم خالد، لم يعدل بنا أحداً من أصحابه، عليه أفضل الصلاة والسلام.

صادقة: هل من ذكرى أثيرة لك مع الرسول القائد يا سيِّدي؟

عمرو: حصل ذات يوم فزعٌ في المدينة، فأتيتُ سالماً مولى أبي حذيفة، وهو محتبٍ بحمائل سيفه، فأخذتُ سيفاً فاحتبيتُ بحمائله، فقال رسول الله

الجميع: صلى الله عليه وسلم.

عمرو: «أيها الناس، ألا كان مَفْزَعُكم إلى الله ورسوله؟ ألا فعلتم كما فعل هذان المؤمنان؟».

وتذكرت حديثاً رواه لنا الأستاذ، وكتبته في دفتري، فتناولت دفتري وأنا أقول:

ــ سأقرأ عليك يا سيِّدي هذا الحديث..

روى الإمام أحمد عن علقمة بن رمثة: أن رسول الله ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين، فخرج رسولُ الله في سرية، وخرجنا معه، فَنَعَس، وقال: «يرحم الله عمراً» فتذاكرْنا كلَّ مَنِ اسمُه عمرو. قال: فَنَعَس رسول الله ﷺ ثم قال: «رحم الله عمراً». ثم نعس الثالثة: فاستيقظ فقال: «رحم الله عمراً» قلنا: يا رسول الله. مَنْ عمرو هذا؟ قال: «عمرو بن العاص» قلنا: وما شأنه؟ قال: «كنت إذا نَدَبْتُ الناس إلى الصدقة، جاء فأجزل منها، فأقول: يا عمرو! أنَّى لك هذا؟ فقال: من عند الله. قال: وصَدَقَ عمرو؛ إنّ له عند الله خيراً كثيراً».

ما كدتُ أنهي قراءة الحديث، حتى اهتزّ سيِّدي عمرو طرباً ثم قال:

ـ قال لي رجل من المسلمين:

ـ أرأيتَ رجلاً مات رسول الله ﷺ وهو يحبّه، أليس رجلاً صالحاً؟

قلت: بلى.

قال: قد مات رسول الله ﷺ وهو يحبّك، وقد استعملك.

قلت: بلى.. فوالله ما أدري: أحبّاً كان لي منه، أم استعانةً بي، ولكن سأحدّثك برجلين مات وهو يحبّهما: ابن مسعود وعمار.

وقال سيّدي عمرو:

ـ إن النبـي ﷺ أخرج شقة خميصة سوداء، فعقدها في رمح،

ثم هزَّ الراية فقال: «من يأخذ هذه بحقّها؟» فهابها المسلمون (من أجل الشرط) فقمتُ وقلت: يا رسول الله، وما حقُّها؟ قال: «لا تقاتل بها مسلماً، ولا تفرّ بها عن كافر» فأخذتُها.

وسألت صادقة عن المدة التي أمضاها سيِّدي عمرو في عُمان، فقال:

ــ بقيت في عُمان إلى أن جاءتنا أخبار وفاة النبيّ الكريم ﷺ، فغادرتها ومضيت حتى وصلت إلى البحرين، فوجدت المنذر بن ساوى في الموت، فقال لي المنذر:

ــ أشرْ عليّ في مالي بأمرٍ لي ولا عليَّ.

فأشرتُ عليه أن يتصدق بعقار صدقة تجري من بعده، ففعل.

ثم خرجت من عنده فسرتُ في بني تميم، ثم خرجت إلى بلاد بني عامر، فنزلت على قُرّة بن هبيرة، وقُرّةُ يقدّم رجلاً ويؤخّر رجلاً في الردّة، فاستقبلني قُرّة فذبح لي، وأكرمني، فلمّا أردت الرحيل، خلا بي وقال لي:

ــ يا هذا، إنّ العرب لا تطيب لكم نفساً بالإتاوة، فإنْ أنتم أعفيتموها من أخذ أموالها، فستسمع لكم وتطيع، وإن أبيتم، فلا أرى أن تجتمع عليكم.

فسألت صادقة:

ـ كأنه يريد أن يمتنع عن دفع الزكاة، كما امتنعت القبائل المرتدة؟

أجاب عمرو:

ـ نعم. ولذلك قلت له: أكفرتَ يا قُرّة؟ أتوعدنا بالعرب، وتخوّفنا بها؟ فوالله لأوطئنّ عليك الخيل.

قال عمرو رضي الله عنه:

ـ ثم تركته ومضيت في طريقي إلى المدينة، فأقبلتُ حتى مررت على مسيلمة الكذّاب، فأعطاني الأمان، ثم قال لي:

ـ إنّ محمداً أُرسل في جسيم الأمور، وأُرسلتُ في المحقَّرات.

قلت لمسيلمة:

ـ اعرضْ عليَّ ما تقول.

فقال مسيلمة:

ـ يا ضفدع نقّي فإنّك نِعْمَ ما تنقّين، لا زاداً تنقّرين، ولا ماءً تكدّرين.

فضحكتُ في سرّي وقلت له: زدني، فقال:

ـ يا وَبْرُ يا وَبْر، ويدان وصدر، وبيان خلقه حفر.

ولم أستغرب مثل هذا السخف من مسيلمة المتنبىء الكذّاب، الذي يزعم أنّ الوحي جاء بهذه (الآيات) السخيفات.

ثم أُتي مسيلمة بأناس يختصمون في نخلات قطعها بعضُهم لبعض، فتسجَّى قطيفة، ثم كَشَفَ رأسه، ثم قال:

ــ والليل الأدهم، والذئب الأسحم، ما جاء ابن أبـي مسلم من مجرم.

ثم تسجَّى الثانية فقال:

ــ والليل الدامس، والذئب الهامس، ما حُرْمَتُه رُطَباً إلَّا كحُرْمَتِه يابس. قوموا فلا أرى عليكم فيما صنعتم بأساً.

فقلت لمسيلمة:

ــ أما والله إنك كاذب، وإنّك لتعلم إنّك لمن الكاذبين.

ــ وسكت لك؟

ــ بل توعّدني وهدّدني، ولكنني لم آبه له، فقد عَرَفْتُ أنّ كلامه السخيف هذا، يدلّ على ضعف عقله، وتفاهة رأيه، وهو كلام يستدعي السخرية منه، والهزء به.

فقالت صادقة:

ــ كلامك صحيح جدّاً يا جدّي، فما قاله مسيلمة كلام ركيك، وسجع ممجوج.

وقلت أنا:

ــ ثم ماذا يا سيِّدي يا أبا عبد الله؟

قال الصحابيّ الجليل عمرو:

ـ ثم واصلتُ مسيري، حتى قدمتُ المدينة، فقابلتُ الخليفة أبا بكر الصديق وأكابر صحابة رسول الله، وأخبرتهم خبر القبائل التي ارتدت عن الإسلام.

فسألت صادقة:

ـ وماذا كان ردُّ فعل الخليفة يا جدّي؟

أجاب القائد عمرو:

ـ كان ردّ الخليفة سريعاً، فقد عقد أحد عشر لواء لحرب المرتدين، وكنت فيمن عقد له لواء الحرب، ووجّهني إلى (قضاعة) وقد ذكرت لكم قبل قليل، أنّ رسول الله ﷺ كان وجّهني إليهم، في غزوة ذات السلاسل، وقد سلكتُ إليهم الطريق نفسه الذي سلكته في غزوة ذات السلاسل، وأعملتُ سيوفي فيهم، فقتلتُ منهم من قتلت، وهزمتُ الباقين، فعادوا إلى الإسلام، وعدت إلى المدينة منصوراً بعون الله ونصره.

فعلّقتْ صادقة بقولها:

ـ الحمد لله الذي نصركم في حروب الردّة التي واجهتكم بكل ما في المرتدين من شدّة وشراسة، وقد أسهمتَ، يا جدّي البطل، في إطفاء نيران تلك الفتنة، فجزاك الله كلّ خير.

وسألتُ بدوري سيِّدي عمرو بن العاص عما كان من شأنه مع الخليفة الصديق، بعد حروب الردّة فأجاب:

ـ أعادني الخليفة إلى عملي الذي كان رسول الله ﷺ قد ولّاني إياه في عُمان، أعيد تنظيم شؤون المسلمين، بعد القضاء على فتنة المرتدين، وأجبي الصدقات، وأفصل في الخصومات، إلى أن جاءني كتاب الخليفة الصديق الذي يقول فيه:

«إني كنت قد رددْتُك على العمل الذي ولّاك رسول الله ﷺ مرة، ووعدك به أخرى، إنجازاً لمواعيد رسول الله ﷺ، وقد وليتَه، وقد أحببتُ أن أفرّغك لما هو خير لك في الدنيا والآخرة، إلَّا أن يكون الذي أنت فيه أحبَّ إليك يا أبا عبد الله».

فسألت صادقة:

ـ وماذا كان جوابك يا جدّي؟

فقال عمرو رضي الله عنه:

ـ كتبتُ إلى الخليفة الصديق رضي الله عنه:

«إني سهمٌ من سهام الإسلام، وأنتَ بعد الله الرامي بها، والجامع لها، فانظرْ أشدَّها وأخشاها وأفضلها، فارم به شيئاً إن جاءك من ناحية من النواحي».

وبدأ أبو بكر يحشد العرب، وطلب مني العودة إلى المدينة، وأمرني أن أجمع العرب، وذلك في رسالة قال فيها:

«إني قد استعملتُك على من مررت به من (بلي وعذرة وسائر قضاعة) ومن سقط هناك من العرب، فاندبهم إلى الجهاد في

سبيل الله، ورغّبهم فيه، فمن تبعك منهم، فاحمله وزوّده، ورافقْ بينهم، واجعل كلَّ قبيلة على حدتها ومنزلها».

فمضيت بمن معي إلى المدينة، وهناك عقد لي الخليفة راية الجهاد، وكنت أول من أرسله الخليفة على رأس جيش إلى الشام، وكان مؤلفاً من ثلاثة آلاف مجاهد، وأمّرني على فلسطين، وأوصاني بهذه الوصية الغالية:

«اتّق الله في السرّ والعلانية، فإنّه من يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب، ومن يتّق الله يكفِّرْ عنه سيّئاتِه ويُعْظِمْ له أجراً، فإنّ تقوى الله خير ما تواصىٰ به عباد الله. إنك في سبيل من سبل الله، لا يسعك فيه الإذهان (أي النسيان والتلهّي عنه) والتفريط والغفلة عمّا فيه قِوام دينكم، وعصمة أمركم، فلا تَنِ (أي فلا تضعف) ولا تفْتُرْ».

فهتفت صادقة:

ـ الله أكبر، ما أروع هذه الوصيّة يا جدّي!.

وسألتُ القائد عمراً:

ـ متى عقد الخليفة لكم اللواء يا سيِّدي؟

ـ في يوم الخميس، مستهلّ شهر صفر، من سنة ثلاث عشرة الهجرية.

وقالت صادقة، والانفعال ظاهر عليها وفي كلماتها:

ـ آه يا جدّي المجاهد.. إنّ ذكرك لفلسطين يدمي الفؤاد، فقد بيعت بأبخس الأثمان.

فقاطعها القائد البطل بقوله:

ـ ولهذا يجب أن تذكروها في سائر أحوالكم.. فهذه الأرض الطاهرة، بذلنا في سبيل تحريرها دماءنا.. طوفوا في مدنها وقراها، في سهولها وجبالها، في أوديتها وأغوارها، وتحسّسوا قبور صحابة رسول الله ﷺ فيها، فستجدون ترابها مجبولاً بدمائهم وعرقهم، وقد ضمّ ثراها أجسادهم وأشلاءهم.

فقالت صادقة في أسى:

ـ نعم يا جدّي نعم.. أكمل حديثك أرجوك.

فقال البطل عمرو:

ـ كما قلت لكم: عقد لي الخليفة لواء حرب الجيش المتوجّه لفتح فلسطين، ولمّا أردت الخروج بالجيش، خرج معي الخليفة ليودّعني وهو يقول:

«يا عمرو!. إنك ذو رأي وتجربة بالأمور، وبصر بالحرب، وقد خرجت مع أشراف قومك، ورجال من صلحاء المسلمين، وأنت قادم على إخوانك، فلا تألُهم نصيحة، ولا تدخّر عنهم صالح مشورة، فرُبَّ رأي لك محمود في الحرب، مبارك في عواقب الأمور».

وسألت صادقة:

ـ هل تذكر لنا يا جدّي شيئاً عن القادة الآخرين؟

فقال القائد عمرو:

ـ كانوا: أبا عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبـي سفيان..

عقد الخليفة لكل واحد لواء، ووجهه وجهة معينة إلى بلاد الشام، وأمرنا أن نسمع ونطيع أبا عبيدة، إذا اجتمعنا معاً.

ـ كأنك تقول يا سيِّدي: عيّن أبا عبيدة قائداً عاماً للجيوش المتوجهة لفتح بلاد الشام.

ـ وهو كذلك.

وسكت القائد عمرو لحظات ثم قال:

ـ وكان مما قاله لي الخليفة في هذا الشأن:

«قد ولّيتك هذا الجيش، فانصرفْ إلى أرض فلسطين، وكاتبْ أبا عبيدة، وأنجده إذا أرادك، ولا تقطع أمراً إلاَّ بمشورته».

وسرح أبو عبد الله بخياله وذكرياته، ثم قال:

ـ رحم الله أبا بكر ما أعظمه.. إني لأتذكر من وصاياه، وهو يمشي إلى جانب فرسي الذي كنت أمتطيه، وأنا ذاهب إلى الشام. قال لي:

«اتق الله يا عمرو في سرّك وعلانيتك، واستحيه، فإنه يراك

ويرى عملك، وقد رأيت تقديمي إياك على من هو أقدم سابقة منك، ومن كان أعظم غناء عن الإسلام وأهله منك، فكن من عمّال الآخرة، وأرِدْ بما تعمل وجه الله، وكن والداً لمن معك، ولا تكشفنَّ الناس عن أستارهم، واكتف بعلانيتهم، وكن مجداً في أمرك، واصدق اللقاء إذا لاقيت، ولا تجبن، وإذا وعظتَ أصحابك فأوجز، وأصلحْ نفسك، تصلحْ لك رعيتك».

فسألتُ القائد عمراً عمّن يعنيهم الخليفة بأصحاب السابقة إلى الإسلام فقال:

ـ كان في جيشي كثير من المهاجرين والأنصار، ممن هم خيرٌ مني، ولكنّ الخليفة قدّمني عليهم، لخبرتي في الحرب..

وقال سيّدي عمرو بن العاص:

ـ ذكرتُ لكم ما ذكرت مما وعته الذاكرة من وصايا الصّدِّيق، لتعرفوا أيَّ رجل كان، فقد قلَّ نظيره بين الرجال، وما علمت أحداً يساويه في جوانب العظمة بعد رسول الله ﷺ.

وقال القائد عمرو:

ـ أمرني الخليفة أبو بكر أن أسلك طريق المعرقة إلى أيلة عامداً إلى فلسطين، أمّا القادة الآخرون: أبو عبيدة ويزيد وشرحبيل، فأمرهم الخليفة أن يسلكوا طريق تبوك إلى البلقاء، عامدين إلى علياء الشام.

وكنت في طريقي من المدينة إلى فلسطين، أدعو الأعراب

الذين أمرّ بهم إلى الانضمام إلى جيشي، فانضمَّ إليّ عدد كبير منهم، وعندما علم أبو عبيدة بذلك، فرح بما فعلت، وقال لي:

«يا عمرو! لَرُبَّ يوم لك قد شهدته فبورك فيه للمسلمين برأيك ومحضرك، وإنما أنا رجلٌ منكم، ولست ـ وإن كنتُ الوالي عليكم ـ بقاطع أمراً دونكم، فأحضرْني رأيك في كل يوم بما ترى، فإنه ليس بـي عنك غنى».

فقلت:

ـ ما دمتَ، يا سيِّدي، على ما تصف من الخبرة والحنكة والتجربة والرأي، فلماذا لم يجعلك الخليفة الصديق قائداً عاماً لجيوش بلاد الشام؟

فتنهّد القائد عمرو وقال:

ـ عندما أمرني الصدّيق بأن أسمع وأطيع لأبـي عبيدة، وعلمتُ أنه سيكون القائد العام، كما تقول، ذهبت إلى عمر بن الخطاب الذي كان الساعد الأيمن للخليفة، وقلت له:

«يا أبا حفص! أنت تعلم شدّتي على العدوّ، وصبري على الحرب، فلو كلّمتَ الخليفة أن يجعلني أميراً على أبـي عبيدة، وقد رأيتَ منزلتي عند رسول الله ﷺ. وإني لأرجو أن يفتح الله على يدي البلاد، ويهلك الأعداء».

ـ وهل رضي سيّدنا عمر بما عرضتَه عليه يا سيِّدي؟

أجاب القائد عمرو:

ـ لا . . لم يستجب لما طلبته منه، بل قال لي:

ـ «ما كنتُ بالذي أكلّمه في ذلك، فإنه ليس على أبـي عبيدة أمير، ولأَبو عبيدة أفضل منزلة منك، وأقدم سابقة منك، والنبـيُّ ﷺ قال فيه: أبو عبيدة أمين الأمّة».

فقلت لعمر:

«ما ينقص من منزلته إذا كنتُ والياً عليه».

فقال عمر:

«ويلك يا عمرو!!. إنك ما تطلب بقولك هذا إلاَّ الرياسة والشـرف، فـاتّـق الله ولا تطلـب إلاَّ شـرف الآخـرة، ووجـه الله تعـالى».

فقلت لعمر:

«إنّ الأمر كما ذكرت».

فسألته صادقة في استغراب:

ـ هـل هـذا كـان تسليمـاً منـك لعمـر بـن الخطـاب يـا جـدّي، أو أنك تعني ما تقول؟

فأجاب عمرو:

ـ بل كنت أعني ما أقول، وإن عمر بن الخطاب، لم يعدُ الحقيقة فيما قال. . إنه كان ينظر بنور الله.

فيما كان القائد عمرو وصادقة يتحاوران، كنت أقلّب صفحات

دفتري، أفتش عن كلام قاله لنا الأستاذ، فلما وقعت عيني عليه قلت:

ـ هل تسمح لي يا سيِّدي أن أذكر لك رأي الإمام شمس الدين الذهبـي فيك؟

ـ تفضّلْ يا بنيّ.

ـ قال الإمام الذهبـي فيك كلاماً طيّباً، ووصفك بالإمام عمرو بن العاص عليه السلام، وذكر أنك كنت تصلح للخلافة، لولا..

فسألني القائد عمرو:

ـ لولا ماذا يا بنيّ؟

فترددت قليلاً، ثم قلت:

ـ سأقرأ لك يا سيِّدي ما كتبْتُه من فم الأستاذ نقلاً عن الذهبـي، فلا تؤاخذني يا سيِّدي، فناقل الكفر ليس بكافر.

ـ هات يا بنيّ.. اقرأ ما عندك، فأنا أعرف الناس بنفسي، أَعْرَفُ من إمامك الذهبـيّ وغيره.. اقرأ.

فقرأت كلام الأستاذ:

ـ الإمام عمرو بن العاص كان يصلح للخلافة، لولا حبُّه للدنيا، ودخوله في أمور، فإنّ له سابقة ليست لمعاوية، وقد تأمّر على مثل أبـي بكر وعمر، لبصره بالأمور، ودهائه.

فابتسم سيّدي عمرو ابتسامة عريضة وقال:

ـ ليس في هذا الكلام اتهام لي.. إنه لم يعدُ الحقيقة، فكذلك كنت، وقد رجوت الله تعالى أن يغفر لي أخطائي وأنا أجود بنفسي..

فسألت صادقة:

ـ كيف كان ذلك يا جدّي؟

فأجاب القائد المجاهد عمرو:

ـ لمّا مرضت مرض الوفاة، قلت لمن حولي:

كيلوا مالي.

فكالوه، فوجدوه اثنين وخمسين مُدّاً، فقلت لهم:

من يأخذه بما فيه؟

يا ليته كان بعراً.

ثم أمرتُ صاحبَ شرطتي أن يدخل وجوه أصحابه، فلمّا دخلوا نظرت إليهم وقلت:

ها قد بلغتُ هذه الحال.. ردُّوها عني.

فقالوا:

ـ مثلك أيّها الأمير يقول هذا؟ هذا أمر الله الذي لا مردَّ له.

قلت:

ـ قد عرفت، ولكن أحببتُ أن تتعظوا.

وسكت عمرو لحظات، فنظرت إليه وإذا دموعه تغسل خديه، ثم قال:

ـ المال والبنون والشُّرَطُ والأعوان مهما كثروا، لن يغنوا عن صاحبهم شيئاً، ولهذا كنت أقول وأنا أُحتضَر:

«اللهمّ إنك أمرتَ بأمور، ونهيتَ عن أمور، تركْنا كثيراً ممّا أمرت، ورتعْنا في كثير مما نهيت، اللهم لا إله إلاَّ أنت».

فسألت صادقة، والتأثّر بادٍ عليها:

ـ هل كنتَ خائفاً من الموت يا جدّي؟

فأجاب الصحابـيّ الجليل وهو يرتجف، كأنه قد ذُعر من ذكر الموت:

ـ لقد جزعتُ عند الموت جزعاً شديداً، فقال لي ابني عبد الله، وكان من الصالحين:

«ما هذا الجزع، وقد كان رسول الله يُدْنيك ويستعملك؟».

فقلت له:

«أيْ بنيّ! قد كان ذلك، وسأخبرك، إيْ والله ما أدري أحبّاً كان أم تألّفاً».

وكنت أقول قبل أن أعاين الموت:

«عجباً لمن نزل به الموتُ وعقلُه معه، كيف لا يصفه؟»

فلمّا نزل بـي الموت، ذكّرني ابني بقولي هذا، وقال لي: صف الموت يا أبتِ.

فقلت له:

«يـا بنيّ! . المـوتُ أجـلُّ مـن أن يـوصف، ولكنّـي سـأصف لـك..

أجدني كأن جبال رضْوىٰ على عنقي، وكأنّ في جوفي الشوك، وأجدني كأن نفسي يخرج من إبرة».

وقد قلتُ مرة ثانية لحرسي:

«امنعوني من الموت».

قالوا: ما كنّا نحسبُك تتكلّم بهذا.

قلت: قد قلتُها، وإني لأعلم ذلك، ولأنْ أكونَ لم أتخذ منكم رجلاً قطّ يمنعني من الموت، أَحَبُّ إليّ من كذا وكذا، فيا ويح ابن أبـي طالب إذ يقول: «حَرَسَ امرءاً أجلُه».

ثم قلت:

«اللهم لا بريء فأعتذر، ولا عزيز فأنتصر، وإنْ لا تدركني منك رحمة، أكنْ من الهالكين».

ثم أوصيت ابني عبد الله فقلت في وصيتي:

«إذا متُّ فاغسلني غسلة بالماء، ثم جفّفني في ثوب، ثم اغسلني الثانية بماء قَرَاح، ثم جفّفني، ثم اغسلني الثالثة بماء فيه كافور، ثم جفِّفني، وألبسني الثياب، وزُرَّ عليّ، فإني مخاصَم. ثم إذا حملتَني على السرير، فامشِ بـي مشياً بين المشيتين، وكن خلف

الجنازة، فإنّ مقدَّمها للملائكة، وخلفها لبني آدم، فإذا أنت وضعتَني في القبر، فشُنَّ عليّ التراب شنّاً».

سمعتُ أختي صادقة تنتحب، فأردت تغيير مجرى الحديث، والعودة إلى ما كنّا عليه من ذكر الأمجاد التي حقّقها القائد البطل عمرو بن العاص رضي الله عنه، فقلت:

ــ عفواً سيِّدي الكريم.. كنا نتحدث عن ذهابك إلى فلسطين، وأنك جمعتَ جموعاً من الأعراب انضمت إلى جيشك، فكم صار معك من المقاتلين؟

فكأنني انتشلتُ عمراً من مكان سحيق، فاعتدل في جلسته وقال:

ــ صار معي ومع كل قائد من قادة جيوش الشام سبعة آلاف وخمس مئة مقاتل.

ــ كيف؟ كنتم ثلاثة آلاف مجاهد؟

ــ هذا لأن الخليفة أبا بكر كان يمدّنا بالمتطوّعين الذين قدموا عليه من كلّ حدب وصوب.. وكان جيشي مؤلفاً من أهل مكة والطائف وهوازن وبني كلاب.

كنتُ أسترق النظر إلى صادقة، والقائد عمرو يتحدث، فرأيتها تستعيد نفسها، وتستعدّ للمشاركة في الحديث، ففرحتُ لأني استطعتُ إخراجها من جوّ الموت، وقلت:

ــ ثم ماذا يا سيِّدي القائد المجاهد؟

قال القائد عمرو:

ـ اتخذت من (غمر العربات) في غور فلسطين قاعدة لي، ثم شرعت في تنظيم عملياتي، وكان هرقل، قيصر الروم في بيت المقدس، وعلم من عمّاله في الشام بنزول جيوش المسلمين فيها، قال لهم هرقل:

«أرى أن تصالحوا المسلمين، فوالله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام، ويبقى لكم نصفه مع بلاد الروم، أحبُّ إليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم».

فتفرّقوا عنه وعصوه، فجمعهم وسار بهم إلى حمص، فنزلها، وأعدَّ الجنود والعساكر، وأراد إشغال كل طائفة من المسلمين، بطائفة من عسكره، لكثرة جنده، وبذلك يضعف جيوش المسلمين، فأرسل أخاه (تذارق) في تسعين ألفاً إليّ، وأرسل جيشاً لإشغال يزيد، وجيشاً ثالثاً في ستين ألفاً إلى أبي عبيدة، وجيشاً رابعاً إلى شرحبيل.

والتقط القائد المجاهد أنفاسه ثم قال:

ـ لقد هاب المسلمون جيوش الروم، فكاتبوني يطلبون رأيي، فأجبتهم:

«إنّ الرأي لمثلنا الاجتماع، فإنّ مثلنا، إذا اجتمعنا، لا نُغلب من قلّة، فإن تفرّقنا، لا يقوم كلّ فرقة له بمن استقبلها، لكثرة عدوّنا».

كما كتبوا إلى الخليفة أبي بكر، يستطلعون رأيه، وبماذا يأمرهم، فجاء رأي الخليفة مطابقاً لرأيي.. قال لهم:

«إنَّ مثلكم لا يؤتىٰ من قلّة، وإنما يؤتىٰ العشرة الآلاف من الذنوب، فاحترسوا منها، فاجتمعوا باليرموك متساندين، وليصلِّ كلُّ واحد منكم بأصحابه».

وتحرّك أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد حتى نزلوا (الجولان) وتحركتُ أنا من (غمر العربات) حتى نزلت معهم، ثم تحرّكنا نحو اليرموك ثم اجتمع الروم في (الواقوصة) وهي على ضفة اليرموك، وصار الوادي خندقاً لهم، وإنما أراد قائد الروم أن يستثبت الروم، ويأنسوا بالمسلمين، وترجع إليهم أفئدتهم، فقد كانت معنوياتهم منهارة، وتحرّكنا نحن من معسكرنا، حتى نزلنا بحذاء الروم، على طريقهم، فلم يبق للروم طريق إلاَّ علينا.. نظرت إلى الروم فرأيتهم محصورين، فهتفت:

«أبشروا ــ أيها الناس ــ فقد حُصرت الروم، وقلّما جاء محصور بخير».

وأقمنا إزاء الروم أكثر من شهرين، لا نقدر عليهم، ولا يخلصون إلينا، الواقوصة من ورائهم، والخندق من أمامهم، ولا يخرجون خرجة إلاَّ أُديل المسلمون منهم.

وسكت عمرو لحظات ثم تابع يقول:

ــ لا بدّ أنكم تعرفون الكثير عن معركة اليرموك التي قادها

سيف الله خالد بن الوليد بكفاءة نادرة، وكنت أنا وشرحبيل على كراديس الميمنة، كما كان يزيد بن أبـي سفيان على الميسرة، وكان أبو عبيدة على القلب، ونصرنا الله على جموع الروم الهائلة نصراً مؤزراً فتح لنا أبواب الشام كلها.

فلم أملك نفسي من الهتاف: الله أكبر.. الله أكبر.. بينما تابع القائد عمرو يقول:

ـ وكنت أحد القادة البارزين في فتح مدينة دمشق، في عهد الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كنت أحاصرها من جهة باب توما.

فسألت صادقة:

ـ متى فتحتم دمشق يا جدّي؟

ـ في السنة الثالثة عشرة طبعاً.. بعد اليرموك مباشرة.

وقالت صادقة:

ـ ثم ماذا يا جدّي البطل؟

فأجاب الصحابـيُّ الجليل عمرو بن العاص:

ـ ثـم شـاركـت فـي فتـح (فِحْـل) و (بيسـان) و (طبـريـا).. واسمعوا جيداً ما سأقصّه عليكم.

تطلعت إلى فتح (أجنادين) في فلسطين طبعاً، وخطر لي أن أطلـع بنفسي على خبـايـا قـائـد الأعـداء مـن الـروم، وكـان يـدعـى

(أرطبون) فجازفت بنفسي، وذهبت إليه متنكّراً ومدّعياً أني رسول لعمرو بن العاص، وأفهمت الأرطبون أن كلّ مسلم مستعدٌّ لبذل روحه في سبيل الله. . ويبدو أن الأرطبون أحسّ أنّ الذي يحاوره هو عمرو بن العاص، أو أحد قادته الكبار، فأوعز إلى أحد جنوده أن يقتلني في الطريق غدراً.

ــ ما أقذر الغدر! . إنه ليس من شيم الرجال.

وتابع عمرو حديثه:

ــ وفطنت لغدر الأرطبون، فقلت له:

قد سمعتَ مني وسمعتُ منك، وقد وقع قولك مني موقعاً، وأنا واحدٌ من عشرة، بعثنا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنعاونه ونشهد أموره، وسوف أرجع وآتيك بهم الآن، فإنْ رأوا في الذي عرضتَ مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه، رددتَهم إلى مأمنهم، وكنتَ على رأس أمرك.

فسألت صادقة:

ــ وجازت الحيلة على أرطبون؟

وأجاب سيِّدي عمرو:

ــ نعم. . فقال الأرطبون: نعم. . وفرح فرحاً ظاهراً، لأنه حسب الموقف فخّاً لصالحه، يستطيع أن يصيد به عشرة قادة، لا واحداً. .

واتفقت معه على إحضار الباقين، وأرسل الأرطبون إلى الجندي الذي أوصاه بقتلي، أن يكفّ عن قتلي، ونجوتُ بجلدي من هذا المأزق الدقيق الخطير.

فهتفت أنا وأختي: الله أكبر.. الله أكبر..

وقالت صادقة:

ــ لله أنت يا جدّي من قائد داهية.

فضحك عمرو وقال:

ــ سبقك إليها أمير المؤمنين عمر.

ــ كيف؟

ــ عندما سمع أمير المؤمنين القصة، استغرق ضاحكاً وقال:

«لله عمرو.. غلبه عمرو..».

فسألتُ عمراً رضي الله عنه عن موقف الأرطبون، بعد أن عرف الحقيقة المُرّة، فقال القائد الداهية:

ــ ابتلع الأرطبون الخدعة بمرارة وقال:

«لقد خدعني الرجل.. إنه أدهى الخلق جميعاً».

وقالت صادقة:

ــ نعود إلى (أجنادين) يا جدّي.

فقال عمرو:

ـ نسيت أن أقول لكم: إنّ الأرطبون كان أدهى الروم، وأبعدهم غوراً، وكان قد وضع في (الرملة) جنداً عظيماً، كما وضع مثلهم في إيلياء (القدس) فلما بلغ أميرَ المؤمنين أني أقف في مواجهة الأرطبون قال: «رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب، فانظروا عمّا تنفرج».

فقالت صادقة:

ـ انفرجت بتغلب دهاء جدّي القائد عمرو، على داهية الروم الأرطبون.

وتابع عمرو يقول:

ـ كان معاوية بن أبي سفيان قد شغل أهل (قيسارية) عني، كما شغلتُ أهل إيلياء والرملة بمن أرسلتُ إليهم من جنودي، عن قواتي الأصلية، وأقمت على أجنادين لا أقدر على الأرطبون، ولا تشفيني الرسل، فجازفت بنفسي وذهبت إليه، كما ذكرت لكم، واستطلعت بنفسي نقاط الضعف ومواطن القوة في مواقع الروم، ثم هاجمتهم في أجنادين، واشتبكت معهم في قتال مرير كقتال يوم اليرموك، حتى كثرت القتلى بين الطرفين، ثم انهزم الأرطبون إلى مدينة إيلياء (القدس) وفسح المسلمون طريق الهزيمة له ولمن معه من المنهزمين، فدخل إيلياء، وأزاح المسلمين عنه إلينا في أجنادين، وانضمّت إلينا قوات جديدة، ثم كتب إليّ أرطبون يقول:

«إنك صديقي ونظيري، أنت في قومك مثلي في قومي، ووالله

لا تفتتح من فلسطين شيئاً بعد أجنادين، فارجع، ولا تَغَرّ فتلقىٰ ما لقي الذين قبلك من الهزيمة».

فأجبته:

«جاءني كتابك، وأنت نظيري ومثلي في قومك، لو أخطأتك خصلة تجاهلت فضيلتي، وقد علمت أني صاحب فتح هذه البلاد، وأستعدي عليك فلاناً وفلاناً وفلاناً ــ لوزرائه ــ فأقرئهم كتابي، ولينظروا فيما بيني وبينك».

وأرسلتُ من يتجسس لي الأخبار، فعلمت أن أهل بيت المقدس مصممون على عدم الاستسلام إلّا للخليفة عمر، فكتبت إلى أمير المؤمنين عمر أستمدّه وأقول:

«إني أعالج حرباً كؤوداً هدوماً، وبلاداً ادُّخرت لك، فرأيك».

فما كان من أمير المؤمنين إلّا أن يتوجّه إلينا من المدينة، فقدِمَ (الجابية) وقَدِم إلى الجابية قسم من أهل بيت المقدس، وصالحوا أمير المؤمنين على الجزية، وفتحوا المدينة له.

فسألت صادقة:

ــ والتقيتَ الأرطبون في القدس يا جدّي؟

فابتسم عمرو وقال:

ــ لا.. الذي أمضى الصلح عن أهل بيت المقدس هو العوّام، لأنّ الأرطبون هرب إلى مصر.

وسألتُ القائد المجاهد:

ـ متى كان فتح القدس يا سيِّدي؟

فأجاب:

ـ سنة خمس عشرة الهجرية.

ـ ثم ماذا يا سيّدي؟

ـ ثم فتحت (سبسطية) و (غزة) و (نابلس) و (اللدّ) و (يبنى) و (عَمَواس) و (بيت جبرين) و (يافا) و (رفح) و (مرج عيون).

فأبدينا ـ صادقة وأنا ـ إعجابنا بما تمّ على يد هذا القائد المجاهد من فتوح، ثم قالت صادقة:

ـ هرب الأرطبون إلى مصر، لتتلقاه هناك، أليس كذلك يا جدّي؟

فابتسم عمرو وقال:

ـ الحقّ أنني تعبت كثيراً حتى استطعت إقناع أمير المؤمنين بفتح مصر.

فسألتُه:

ـ هل خضتم معارك هائلة، كتلك التي خضتموها في فتح الشام يا سيِّدي؟

قال عمرو:

ـ دارت بيننا وبين المصريين عدة معارك، ولكنها ليست

كالتي خضناها في بلاد الشام.. دارت بيننا معارك في (الفرما) و (بلبيس) و (الفيّوم) و (عين شمس) وأخيراً في حصن (باب ليون) الذي حاصرناه شهراً، وقاتلونا عنده قتالاً شديداً، وكان فيه جماعة من الروم، وأكابر القبط ورؤساؤهم، وعلى رأسهم المقوقس، ولكنهم لمّا رأوا الجدَّ منّا، هرب المقوقس، وهرب معه جماعة من أكابر القبط من باب القصر القبلي، ولحقوا بالجزيرة.

ـ أيَّ جزيرة تعني يا سيِّدي؟

ـ جزيرة الروضة..

وهكذا تمّ لنا ما أردنا وأراده الله لنا ـ يا حفدتي الأعزّة ـ وفتحت مصر كلُّها قلبها وعقلها للإسلام، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وبذلك تخلصوا من طواغيت الروم وعملائهم الذين كانوا يضطهدون المصريين ويذلّونهم، ويميّزون بينهم في المذاهب..

وقالت صادقة:

ـ وبفضل الله ثم بفضل جهادكم، يا جدّي، صار الشعب المصري شعباً عربياً مسلماً، يتحدث باللغة العربية، ويدين بالإسلام، ويدافع عن العروبة والإسلام معاً.

وقلت أنا:

ـ أتعبناك يا سيّدي، ولكنني أحبُّ أن أذكر لكم بعض ما قاله لنا الأستاذ من أنك فتحت ليبيا، وأدخلتَ إلى ربوعها اللغة العربية والإسلام، حتى صار الشعب الليبيُّ كالشعب المصري، شعباً عربياً

مسلماً، كما قال لنا الأستاذ: إنك أول من فكّر في فتح تونس التي كنتم تسمّونها إفريقيا، ومهّدتَ لفتحها، وأنك بعثت البعوث من أجل ذلك، ولولا وقوف سيّدنا عمر أمير المؤمنين في وجهك، ومنعك من فتحها، لألحقتها بليبيا ومصر.. كما ذكر لنا الأستاذ أنك أول من فكر في فتح (النوبة) ومهّدتَ لفتحها أيضاً، وقال الأستاذ:

كان من ثمرات جهادك فتح فلسطين ودمشق والقدس ومصر وليبيا، وهي بلاد لم يفتح غيرك من قادة الفتح الإسلامي أوسع منها وأكثر خيراً.

وكم كنا نتمنّى لو تحدّثنا طويلاً عن فتح مصر والإسكندرية وليبيا بالتفصيل، ولكننا أتعبناك يا سيِّدي، وبقيت لنا حاجة ورجاء إليك: أن تذكر لنا بعض كلماتك التي نختتم بها جلسة اليوم يا سيِّدي.

لملم القائد عمرو أطراف عباءته ثم قال:

ــ دعوني أتكلم على السجيّة، وبما يفتح الله عليّ..

بعد فتح القدس استأذنت أمير المؤمنين في فتح مصر، وقلت له:

«إنّك إن فتحتَها كانت قوة للمسلمين، وعوناً لهم» فأثّرت هذه الكلمات في أمير المؤمنين، ولكنّه تردد، ثم ما لبث أن وافق، لأنه عرف أني أعني ما أقول، لأنني كنت أعرف مصر جيداً من خلال سفري إليها مراراً للتجارة، وأعرف ما فيها من خيرات ينبغي أن تسهم في نشر هذا الدين العظيم.. تردد عمر وتمهّل ثم قال لي:

«إني مرسلٌ إليك كتاباً، فإن أدركك وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر، قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها، فانصرفْ، وإن دخلتها قبل أن يأتيك كتابي فامضِ لوجهك، واستعن بالله، واستنصره».

فسرتُ في جوف الليل، ولم يشعر بي أحد، وكان معي ثلاثة آلاف وخمس مئة مجاهد، ويبدو أن أمير المؤمنين تخوّف على المسلمين من فتح مصر، في هذا العدد القليل، فكتب إليّ كتاباً، فأدركني حامل الكتاب وأنا في (رفح) فتخوّفتُ من أخذ الكتاب وفتحه، من أن أجد فيه أمراً بأن أنصرف عن فتح مصر، وأعود من حيث جئت، فلم آخذ الكتاب من الرسول، بل كنت أدافعه عنّي حتى نزلتُ قرية فيما بين رفح والعريش، فسألت عنها، فقيل لي: إنها من مصر، فدعوتُ بالكتاب، ثم قلت لمن معي:

ـ ألستم تعلمون أن هذه القرية من مصر؟

قالوا: بلى.

ففتحتُ الكتاب وقرأته على المسلمين، وقلت لهم:

ـ إن أمير المؤمنين عهد إليّ وأمرني: إن لحقني كتابه ولم أدخل أرض مصر، أن أرجع، ولم يلحقني كتابه حتى دخلنا مصر. فسيروا وامضوا على بركة الله.

فهتفتُ وأختي إعجاباً، ثم قلت:

ـ هيهِ يا سيّدي أيها القائد العظيم.

قال عمرو رضي الله عنه:

ــ الآن.. سوف أذكر لكم بعض ما تناقله الناس من أقوالي، ولن أطيل:

قلت مرة:

«لا أملُّ ثوبـي ما وسعني.
ولا أملُّ زوجتي ما أحسنت عِشْرتي.
ولا أملُّ دابّتي ما حملتني.
إن الملال من سيِّـىء الأخلاق».

وسئلتُ مرةً عن المروءة فقلت:

«المروءة: أن يصلح الرجل ماله، ويُحسن إلى إخوانه».

ومما قلت:

«ليس العاقل الذي يعرف الخير من الشر، ولكنه الذي يعرف خير الشرّين».

وقلت يوماً لمعاوية:

«إنّ الكريم يصول إذا جاع، وإنّ اللئيم يصول إذا شبع، فسُدَّ خصاصة الكريم، واقمع اللئيم».

وقال لي معاوية يوماً:

مَنْ أبلغُ الناس؟

قلت: مَنْ كان رأيُه رادّاً لهواه.

قال: مَنْ أسخى الناس؟

قلت: مَنْ بذل دنياه في صلاح دينه.

قال: مَنْ أشجعُ الناس؟

قلت: مَنْ ردَّ جهلَه بحلْمه.

ومن أقوالي التي أعتزّ بها:

«موتُ ألفٍ من العِلْية، أقلُّ ضرراً من ارتفاع واحد من السِّفْلة».

وقلت:

«إذا أنا أفشيتُ سرّي إلى صديقي فأذاعه، فهو في حِلٍّ، لأنني أنا كنتُ أحقَّ بصيانته».

كان سيِّدي عمرو يتحدث، وكنت أقلّب في دفتري، حتى إذا ما توقف عن الحديث قلت:

ـ اسمع يا سيِّدي ما أخذتُه عن أستاذي:

قال طلحة رضي الله عنه: ألا أحدّثكم عن رسول الله ﷺ بشيء؟

إني سمعتُه يقول:

«عمرو بن العاص من صالحي قريش. نِعْمَ أهلُ البيت أبو عبد الله، وأمُّ عبد الله، وعبد الله».

وعن جابر قال:

«صحبتُ عمرو بن العاص، فما رأيت رجلاً أبينَ أو أنصعَ رأياً، ولا أكرمَ جليساً منه، ولا أشبهَ سريرةً بعلانية منه».

وقال آخر:

«صحبتُ عمرو بن العاص، فما رأيتُ رجلاً أبينَ قرآناً، ولا أكرمَ خلقاً، ولا أشبه سريرة بعلانية منه».

وإنك راوي هذا الحديث الرائع عن الرسول القائد ﷺ:

«إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإن أخطأ فله أجر».

وعندما حضرتك الوفاة، يا سيِّدي كنت تردّد:

«لا إله إلاّ الله».

حتى توفّاك الله سنة ثلاث وأربعين الهجرية، ودُفِنتَ في جبل المقطَّم في مصر، فسلامٌ عليك في الخالدين.

• • •

المصادر والمراجع

١ ــ السيرة النبوية، لابن هشام.

٢ ــ السيرة النبوية، لابن كثير.

٣ ــ الكامل في التاريخ، لابن الأثير.

٤ ــ الطريق إلى دمشق، أحمد عادل كمال.

٥ ــ عمرو بن العاص، محمود شيت خطاب.

٦ ــ رجال حول الرسول، خالد محمد خالد.

٧ ــ عمرو بن العاص، عباس محمود العقاد.

٨ ــ قادة فتح الشام ومصر، محمود شيت الخطاب.

● ● ●

